اجتماعيات مصرية

الابن الضال

بقلم الاديب عبد الحميد يونس

الرسالة الأولى

. . . . كلمنى الصديق كامل بتحيتك، وهو يعتب عليك لأنك لا تراسله ، وهو كما كان فى الماضى مشرق الوجه، يعرف كيف يوفق بين العمل واللعب . أما عبد العزيز فلم يترك المعابثة والمجون ، وقد جاءنا أول أمس وأخبرنا أنه لاحظ كاملا « يفتح الدرج » ، ويخرج منه صورة يتأملها فى شغف وإعجاب ، ثم يردها إلى مكانها ، وأقول لك الحق لقد أثار الشيطان فضولنا، ولهذا طلبنا إليه أن يبرهن على دعواه بالدليل المحسوس . . !

وبالأمس فى « حصة » الرياضة ، شعر الجميع بالملال من درس فى « النسبة والتناسب » ، وكأنما أقسم الناقوس على مضايقتنا لأن الحصة طالت حتى يئسنا من الخلاص منها ... وأخيراً جداً انتهى الدرس فأسرعنا إلى فناء المدرسة لا نلوى على شىء ، وهناك رأينا عبد العزيز مقبلا نحونا فى سرعة وحذر ، وما أن اقترب منا حتى قال « لا تخافوا . . . كامل يتناول السندوتش ! »

وما كان أشد دهشتنا عند ماوجدناها صورة فتاة ، ولقد خيل إلينا أنها تنظر نظرة عميقة، فيها وداعة الأنوثة ، وثورة الشباب معاً ! ولا أكتمك أنى شخصياً حسدت كاملا على توفيقه فى العمل وفى اللعب وفى الحب . .

وشعر كامل بالأمر عند إعادة الصورة إلى مكانها، وخشينا أن يغضب، ولكنه عاتبنا مبتسما ، وهذا بالطبع غاظ عبد العزيز الذى يحب الثورة والشجار.

ليس عندى الآن ما أقوله غير هذا لأن الحياة تسير سيرها العادى فى تشابه أيامها وسخافة حوادثها . . . إلى اللقاء .

الرسالة الثانية

. . . . لا أشعر أنى طالب حقاً إلا إذا اقترب الامتحان ، وها هو قاب قوسين أو أدنى ، ومصيبتى أنى لا أذاكر إلا ليالى الامتحان ، وقد كان هذا محتملا فى الماضى، ولكنه الآن مستحيل لكثرة الدروس وتنوع المواد .

ولما شعر الصديق كامل بما أنا فيه من ضيق ، رأى أن يذاكر معي لاستوضحه ما غمض من هذه الرموز الجبرية التي لا نهاية لها، ومن تلك المعادلات الكيائية التي لا أعرف الفائدة منها !

ولهذا توثقت عرى الصداقة بيني وبين كامل ، وكيف لا تزيد هذه الصداقة وقد ساعدني بكل شيء ؟ وكيف لا أعجب به وأنت تعرف عن أخلاقه ما تعرف من تسامح ونبل ؟ وكيف لا أعبده وقد كشف لي عن قلبه وباح لي حتى بقصة حبه ؟

تسكن فتاته التي رأينا صورتها في المنزل المقابل لمنزله ، وقد كان يعرفها منذ طفولتها ، ويعرف أن أمها ماتت عند ولادتها ، وأن أباها تزوج من سيدة تزعم أنها « عصبية » ، سلطان الغريزة عليها أقوى من سلطان العقل، تسيء إلى الفتاة وتضربها وتعاملها معاملة لا تليق بالخدم، وهي لا تكتفي بهذا ، بل تشي بها عند أبيها فيعاقبها دون أن يسألها عن ذنبها !.

والعجب أن كاملا بكى عند هذه النقطة، وقال هذه الجملة التي أذكرها لك حرفياً لأنها أثرت في أبلغ تأثير « ومن أقدر على فهم حالة يتيمة الأم من يتيم الأم ؟ أنا أيضاً ماتت والدتي منذ أمد بعيد »

والآن أدركت أنه يبتسم وقلبه يفيض بالعطف والألم ؛ ولعل ابتسامته « صمام الأمن » ينفس به ما يعاني من هموم هذه الدنيا ، وأقسم لك لقد كبر في عيني وتحول الاعجاب به إلى عبادة وتقديس . . . هل فكرت في زيارتي ؟ . . . .

الرسالة الثالثة

. . . . . لست أعرف كيف أشكرك على تهنئتك الرقيقة، والواقع أنني لم أكن أنتظر النجاح ولولا مساعدة كامل وتشجيعه لتركت الدور الأول إلى الدور الثاني .

أما كامل فقد نجح بالطبع في الامتحان ولكنه تغير فجأة وترك القراءة والكتابة وانقطع عن الموسيقى التي كان يكلف بها إلى درجة الجنون ، وقد حاولت زيارته مراراً فلم أوفق إلى لقائه .

تألمت أول الأمر عندما ذكرت أنه لم يفكر في أن له صديقاً يستطيع أن يواسيه، وخشيت أن تكون ثقته بي قد زالت .

وأخيراً حضر كامل هادئاً رزيناً كعهدي به دائماً لم تفارقه ابتسامته ، وبعد أن اعتذر سألته عن سبب تغيره فأجاب بهذه الجملة المقتضبة . « شغلتني مصالح العائلة » ، وللمرة الأولى لم أصدقه لأنني أظن أن هناك صلة بين تغيره وقصة حبه ، وكم حاولت أن أجره للحديث، ولكنه كان يدير الموضوع إلى غيره في لباقة ومقدرة . . .

وأخوف ما أخافه أن تكون ابتسامته مفتعلة ، وأن يكون هدوءه متكلفاً لأنني سمعت أنه يجيد التمثيل أيضاً . . .

الرسالة الرابعة

لما كنت أعلم أن خير ما يهدى إليك كتاب فقد أرسلت لك « الأخوة كارامازوف » ، وأملى أن تقرءيها ؛ فهى أحق بالترجمة من تلك القصص التى تملأ بها الصحف .. !

وأظنك تسألنى بعد هذا عن كامل . . لقد صح ما توقعته من أن هناك صلة بين تغيره وبين قصة حبه ، والمدهش أنه لم يكذب عند ما قال « شغلتنى مصالح العائلة ! » . إليك التفصيل :

فكر والد كامل فى الزواج،وشكا وحدته إلى أصدقائه وجيرانه ،فحبذوا له الفكرة ،حتى أن أحدهم واسمه « ابراهيم أفندى » تحمس وعرض عليه ابنته البكر « سعاد ! » .

وفى صبيحة أحد الأيام استدعى الوالد كاملا وأعلنه بعزمه على الزواج ، وأخبره أنه اختار فتاة طيبة ستكون أقرب إلى الابنة منها إلى الزوجة؛ هى « سعاد » .

كاد يصعق كامل عندماسمع بهذا لولا تجلده وثباته وقدرته على ضبط نفسه . أتدرى لماذا ؟ لأن سعاد فتاته التى يحبها !

ولقد تزوج الوالد من سعاد فى حفل متواضع جداً ، أو بعبارة أصح تزوج «على السكت» كما تقول العامة . . . وللؤلم أن الذى اصطحب الوالد أو «العريس» -إذا شئت- فى الدخول على عروسه سعاد هو كامل نفسه ! فعل كل هذا فى سكون وثبات .

ورأيت من واجبى أن أدعوه وأن ألحف فى الدعوة ليقضى بقية الليل عنـدى ، وما أن استقر فى غرفتى حتى تهالك على مقعد طويل،ولست أشك فى أن قلبه كان كالبركان يهم بالثوران..

الرسالة الخامسة

لما كانت آمالى لا تقف عند حد ، ولما كنت أعد نفسى للخدمة العامة عن طريق الصحافة، فقد التحقت بكلية الآداب لأنها المعهد الوحيد - على ما أعتقد - الذى يوجهنى الاتجاه الذى أريده ..

أما كامل فقد انهارت أمانيه فجأة ، وهو يحاول- مخلصا- البحث عن وظيفة ،وكم اعترضت عليه وطالبته بالمغامرة فى ميدان الأعمال الحرة،ولكنى وجدت أخيرا أنه معذور،إذ ليس عنده رأس المال ، أو إذا أردت الصراحة : مدارسنا لا تعد الفرد لممارسة أى عمل ، فاذا قلت « أليست الوظيفة عملا ؟» أجبتك لا لا . وإنما هى بطالة متصلة ، بطالة يؤجر صاحبها عليها آخر كل شهر!

الرسالة السادسة

.... « أنا أعمر بالخجل كما ذكرت أنى مقصر،فقد انقطعت عن الكتابة بجميع أنواعها ، ولم اعد اليها إلا لانتهاء اجازة الصيف» ،بدأت حياتى الجامعية، وها أنذا أقبل على المحاضرات فى شغف واهتمام.

مكث معي كامل نهار الامس بطوله وكان كثير الاطراق ، ولكن ابتسامته لم تفارقه .. قال بعد فترة سكوت « اسمع إنه يوم الاعتراف فلتكن قسيسا كاثوليكيا ولو مرة واحدة فى حياتك »، فضحكت ، ولكن ضحكتي ماتت عندما رأيته يجد فى أسلوبه الخفيف .

ثم اعتدل فى جلسته وقال ماخلاصته :« تزوج والدي من سعاد، وأنت تعرف قصتي معها وأصبح مركزي للتزلى فى غاية الشذوذ، وقد حرصت أول الأمر على عدم التحدث اليها إلا بمقدار ما تسمح به الضرورة القصوى، وكنت أراها حيانا والدموع بين أجفانها تحتبس ثم تسيل !

« أما أنا فقد حاولت أن أتسامى بعواطفي ورغباتى فأقبلت على الموسيقى، لاأقول فى حماس ولكن أقول فى نهم ..لم أكن أوقع على الكمان فى الحفلات الخاصة كما كنت فى الماضى، ولكنى كنت أوقع عليها فى غرفتى المنعزلة التى تعرفها ..

« ولقد آثرت بعض المقطوعات، بل أخذت أنشيء مقطوعات جديدة ، أحملها ما يغمر هذا القلب الكبير من عاطفة ...ولم يكن يحلو لى التوقيع إلا والناس نيام حيث تنساب الأنغام فى سكون الليل هادئة خافتة ثم مرتعشة مندفعة . . تمثل الغدير المترقرق الصافى وتمثل الشلال القوى المنهمر ، زفرات وأنات ودموع، ثم ضحكات رقص، ولكنه الطير يرقص مذبوحا من الألم ! وأصبحت لا أعرف معنى للموسيقى فى غير الألم .. هو الحزين أيها العزيز لا يغتذى الا بكل ما هو حزين ..

« وفى إحدى الليالى تناولت الكمان وأخذت أوقع عليها ما أحفظ، ثم انتقلت إلى ما أنشيء ، وقد نسيت كل شيء بل نسيت نفسى ، ولم أستيقظ إلا على صوت أقدام تقترب منى ، رفعت رأسى فاذا بها سعاد !

« مكثت برهة لا أعرف مقدارها ، ثم سألتها عن سبب مجيئها فلم تجب، ورجوتها أن تعود خشية القيل والقال، وقد صدعت للأمر بلا تردد ، وكأنها كانت مدفوعة بقوة خفية لاتعرفها!

« وأسرعت الى فراشى ، وكيف يغمض لى جفن؛ والهواجس تهاجمنى من كل مكان ... الأفكار الخاصة تطاردنى وتتعلق بى ؟ »

هنا سألته ، وقد راعني حديثه: « ما نوع هذه الافكار الخاصة ؟ » فأجاب « كانت هذه الأفكار على صورة حديث بين نفسى وبين ضميرى ! تسألنى النفس ماذنبك ؟ ألم تكن تنوى الزواج بها ؟ وما معنى الزواج ؟ ثم ترد على نفسها ، أجل لاذنب لك لأنك كنت تنوى الزواج بها ، ومعنى الزواج أن تكون معك فى بيت واحد ! وهنا يتداخل الضمير ويضحك ساخراً وهو يسأل: وأبوك ؟ .. أوه ! . ولكن النفس تجيب : لقد اغتصبها وليس هذا العقد المكتوب إلا العوبة الجماعة، بل ليس هذا العقد المكتوب إلا رمز التمرد على القانون الطبيعى الذى يقول بزواج المتشابهين اللذين يرغب كل منهما فى الآخر رغبة صادقة لاتسف الى التجارة والرياء !

(البقية على الصفحة ...)